أصدقاء فلسطين

كان ضرورياً على نظريات المعرفة في الجنوب أن تبدأ ببلورة خطابات وكلمات وأصوات وممارسات، يجري التعبير من خلالها عن مشاعر وتجارب من يعاني من الاحتلال والاستعمار، سواء أكان معرفياً أو ميدانياً.. وهُم في هذه الحالة الفلسطينيّون

معنى الصمود الذي تحجبه نظريات المعرفة الشمالية

تعلّمنا من فلسطين

خورخي رامون تولوسا

كان الكاتب الأورغوياني إدواردو غاليانو هو الذي قال في «كتاب المعانقات»: «إنّ الجيش الإسرائيلي، الأحدث والأكثر تطوّراً في العالم، يعرف جيّداً من يقتل. فهو لا يقتل بالخطأ. يقتل من أجل الرعب وللخوف. واستناداً إلى حروب إمبريالية أخرى، يطلق على الضحايا المدنيّين اسم أضرار جانبية. في غزّة، على سبيل المثال، من بين كلّ عشرة أضرار جانبية، ثمّة ثلاثة أطفال».

أمّا نص «لا أحد» الذي نشره الكاتب عام 2000، في طبعة جديدة من الكتاب نفسه، فيمكن اعتباره نصّاً جوهرياً من أجل فهم بعض الخطوط السحيقة التي فرضتها نظريات المعرفة الشمالية على الجنوب، والتي أسّست عليها حُكمها الرأسمالي والأبوي والعنصري والمبيد للبيئة والاستعماري والعنصري. يقول غاليانو: «أولئك الذين لا يبدعون فناً، بل صنعةً بدوية، الذين لا يملكون ثقافة، بل فلكلوراً. الذين لا أسماء لهم، بل أرقام. الذين لا يظهرون في تاريخ العالم، بل في الصفحة الحمراء للجرائد المحلّية».

قد يكون أحد أهمّ العناصر الرئيسية التي يجب مُراعاتها عند التعامل مع نظريات المعرفة في الجنوب هو أنّ العديد من مفاهيمها ومصطلحاتها وممارساتها لا يمكن ترجمتها إلى وجهات نظر عالمية وإلى لغات الشمال. لذلك يصعب، أن تقدّم، في اللغات الشمالية، فهماً أو شرحاً كافياً أو أصيلاً لهذه المفاهيم، يجب على أوروبا والشمال العالمي أن يتعلّموا، بعد أكثر من خمسة قرون من الاحتلال، واستعمار المعرفة، أنّ مفاهيمهم وفلسفاتهم ليست صالحة أو قابلة للتطبيق في جميع أنحاء العالم. أي أنّها ليست عالمية. علاوة على ذلك، لا تستطيع لغاتهم وأدواتهم اللغوية أن تقدّم تفسيراً أو ترجمةً للعديد من مفاهيم وفلسفات الجنوب العالمي.

ولكن على الرغم من كل شيء، على الرغم من كلّ القيود والخطابات والممارسات التي لا حصر لها، والتي تمارسها المركزية الشمالية لحجب نظريات المعرفة الجنوبية، يهمّني، في هذا الإطار، أن نحاول شرح بعض هذه المفاهيم الجنوبية. يمكننا، مثلاً، أن نحاول الاقتراب من المقاومة الشعبية الفلسطينية من خلال مفهوم «الصمود»، والذي يُستخدم في اللغة العربية.

كما تعلّمنا من فلسطين، فإنّ الصمود هو عنصر أساسي في الوجود الفلسطيني، إضافة إلى كونه عنصراً رئيسياً في رواية أصحاب الأرض. يرتبط هذا المفهوم - وهنا أكرّر صعوبة ترجمته إلى اللغات الشمالية - بالتربية الفلسطينية والوعي الجماعي، كما أنّه يرتبط بثبات وحزم وإصرار الشعب الفلسطيني على البقاء في أرضه والاستمرار فيها.

الصمود، الذي يهدف إلى المثابرة من خلال مقاومة القمع، يرتبط أيضاً بشكل خاص بالمرونة والقدرة على التغلّب على الشدائد. بالنسبة إلى بعض الفلسطينيّين، هو نوعٌ من القوّة أو روح الصلابة التي لا يمكن اختراقها، والتي تسمح لهم بمقاومة جميع الشدائد.

مظاهرة في مدريد تندّد بحرب الإبادة في غزّة، 27 كانون الثاني/يناير 2024 (Getty)

وفي مناسبات عديدة، ارتبط مفهوم الصمود أيضاً بالمقاومة اللاعنفية والعصيان المدني الفلسطيني. ولا يقتصر مفهوم الصمود على مظاهر المقاومة الميدانية أو المسلّحة فحسب، بل يُعبّر أيضاً عن كافة أشكال الثقافة المكتوبة والمسموعة والأكاديمية.

من هنا كان ضرورياً على نظريات المعرفة في الجنوب أن تبدأ ببلورة خطابات، وكلمات، وأصوات، وممارسات، يتمّ التعبير عنها من أجل وصف مشاعر وتجارب من يعاني من الاحتلال والاستعمار، سواء أكان معرفياً أو ميدانياً. وهُم في هذه الحالة الفلسطينيّون. كان لا بدّ أيضاً، وخلافاً لما تؤكّده نظريات المعرفة الشمالية تقليدياً، سواء بشكل صريح أو ضمني، من التأكيد على أنّ المعرفة التي لم تتمّ كتابتها أو تسجيلها لها نفس قيمة تلك التي كُتبت وسُجّلت.

في حالة فلسطين تكتسب هذه الأنماط أبعاداً أخرى، لا سيما أنّ البيئة المعرفية لشعوب الجنوب العالمي تزخر بالفنّ، وليس فقط الحرف اليدوية، كما أنّها مليئة بالثقافة، وليس بالفولكلور فحسب. وهي المعرفة في الجنوب هو أنّ العديد من مفاهيمها ومصطلحاتها وممارساتها لا يمكن ترجمتها إلى وجهات نظر عالمية وإلى لغات الشمال. لذلك يصعب، أن تقدّم، في اللغات الشمالية، فهماً أو شرحاً كافياً أو أصيلاً لهذه المفاهيم. يجب على أوروبا والشمال العالمي أن يتعلّموا، بعد أكثر من خمسة قرون من الاحتلال، واستعمار المعرفة، أنّ مفاهيمهم وفلسفاتهم ليست صالحة أو قابلة للتطبيق في جميع أنحاء العالم. أي أنّها ليست عالمية. علاوة على ذلك، لا تستطيع لغاتهم وأدواتهم اللغوية أن تقدّم تفسيراً أو ترجمةً للعديد من مفاهيم وفلسفات الجنوب العالمي.

ولكن على الرغم من كل شيء، على الرغم من كلّ القيود والخطابات والممارسات التي لا حصر لها، والتي تمارسها المركزية الشمالية لحجب نظريات المعرفة الجنوبية، يهمّني، في هذا الإطار، أن نحاول شرح بعض هذه المفاهيم الجنوبية. يمكننا، مثلاً، أن نحاول الاقتراب من المقاومة الشعبية الفلسطينية من خلال مفهوم «الصمود»، والذي يُستخدم في اللغة العربية.

كما تعلّمنا من فلسطين، فإنّ الصمود هو عنصر أساسي في الوجود الفلسطيني، إضافة إلى كونه عنصراً رئيسياً في رواية أصحاب الأرض. يرتبط هذا المفهوم - وهنا أكرّر صعوبة ترجمته إلى اللغات الشمالية - بالتربية الفلسطينية والوعي الجماعي، كما أنّه يرتبط بثبات وحزم وإصرار الشعب الفلسطيني على البقاء في أرضه والاستمرار فيها.

الصمود، الذي يهدف إلى المثابرة من خلال مقاومة القمع، يرتبط أيضاً بشكل خاص بالمرونة والقدرة على التغلّب على الشدائد. بالنسبة إلى بعض الفلسطينيّين، هو نوعٌ من القوّة أو روح الصلابة التي لا يمكن اختراقها، والتي تسمح لهم بمقاومة جميع الشدائد.

من الصعوبة بمكان ترجمة الصمود إلى اللغات الشمالية

ليس الشمال أنّ مفاهيمه ليست قابلة للتطبيق في كلّ العالم

كلّها تعبيرات عن مفهوم الصمود، الذي يمثّل الوجود الفلسطيني. في هذا السياق يمكننا إضافة أشكال أخرى مثل الرقص الفلسطيني، أو ما يُعرف باسم الدبكة، والموسيقى الفلسطينية، بما في ذلك الأنماط الحضرية الحالية مثل موسيقى الراب أو الهيب هوب. كذلك الحال مع فنّ الطهي أو المطبخ الفلسطيني الذي عانى بدوره من محاولات لا حصر لها للاستيلاء عليه من قبل الرأسمالية والمؤسّسات الإسرائيلية، التي تبيع الحمّص والفلافل في جميع أنحاء العالم كما لو كانت أطباقاً من «إسرائيل» حصرياً. تعيش هذه التعبيرات الثقافية والفنّية والحيوية كلّها في سجن معرفي تديره مركزية الشمال. ولا يمكننا أن ننسى أنّ فلسطين كانت ولا تزال بشكل دوري في قلب الأجندة الإعلامية والسياسية الدولية لنظريات المعرفة الشمالية، خاصّة تلك التي تسيطر عليها مؤسّسات الاتصال والاقتصاد القوية. بهذه الطريقة، بشكل عام، يمكن القول إنّ السجن المعرفي لا يزال يميّز فهم فلسطين المعاصرة. ويعود ذلك، من بين عناصر أخرى، إلى التشويه العامّ للإطار الذي نستخدمه لمقاربته وفهمه، والذي يتضمّن إخفاء الظلم اليومي الذي يمارسه نظام الفصل العنصري الإسرائيلي ضدّ الشعب الفلسطيني منذ عام 1948؛ أو إلى الاستشراق والعنصرية والعنف المعرفي الذي ينطوي على إسكات منهجي للأصوات والمعرفة والنضالات والأفكار وتعبيرات الصمود الفلسطيني.

(النص من كتاب «فلسطين في النظريات الإبستمولوجية الجنوبية» الصادر عن «مركز الدراسات الاجتماعي» في بوينس آيريس عام 2022. ترجمة عن الإسبانية: جعفر العلوني)

بطاقة

Jorge Ramos Tolosa باحثٌ وأكاديمي إسباني، حاصل على دكتوراة في التاريخ المُعاصر. يعمل حالياً أستاذاً في «جامعة فالنسيا». يُعدّ من أبرز الأصوات المدافعة عن فلسطين في إسبانيا خلال العدوان الإسرائيلي الحالي على غزّة. له العديد من الكتب، من أبرزها: «فلسطين: القصّة الجوهرية» (2020)، و«تاريخ مُعاصر للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي» (2020)، و«فلسطين في النظريات الإبستمولوجية الجنوبية» (2022).

قراءة

فلسطين هي الأصل

عابرون في كلام عابر

لا نستعيد مع قصيدة محمود درويش انتفاضة الحجارة فحسب، بل يمكن لها أن تكون ثانيةَ شهادةَ للأطفال تحت الأنقاض وصوتاً للحرب على غزة

عباس بيضون

تدعوني حرب غزّة، لا أعرف كيف، إلى قصيدة محمود درويش «عابرون في كلام عابر». لا أعرف كيف يمكن لطفلٍ من غزّة، لشهيد تحت الأنقاض، أن يسترجع هذه القصيدة التي كُتبت قبل اثنين وثلاثين عاماً، وحملت في طياتها إشارات إلى انتفاضة الحجارة، كما دُعيت يومذاك. لكن القصيدة اشتهرت، لا في قراءة فلسطينية فحسب، ولكن، أكثر من ذلك، في قراءة إسرائيلية.

القصيدة التي لا تمانع ترديد «انصرفوا، اخرجوا» في خطابها للإسرائيليّين، اعتبرها هؤلاء اعتداءً وادّعوا هكذا على شاعرها. قد تكون قصيدة محمود درويش مواكبةً ما لانتفاضة الحجارة، لكن القصيدة، التي هي كتلة واحدة والتي تبني على فكرة مفادها انصرفوا واخرجوا، والتي تكاد تكون، في تسلسلها وبنائها وسياقها، مقالة منظومة، لكنّها مع هذا الاتصال والتتابع والوضوح لا تزال تعود إلينا كشعر خالص، بل هذه إحدى مفاجآتها، أن تكون هكذا قادرة على أن تجد الشعر وراء الدعوة، أن تجد اللحظة الشعرية التي تعتصر الدعوة، وتغنّي على هامشها، تُحوّلها إلى زفرة وإلى طلقة كلامية وإلى تنفيس بحت، في حين تزيدها هذه الموسيقى، وذلك الغناء تكاملاً وتماسكاً وقوّة جدلية وإقناعاً، أي ازدواج النفس والفكرة، وتداعي الفكرة إلى حدّ تكون معه قلباً ولحناً، وتغنّي فيما الفكرة لا تزال تعمل.

هذا ما يدعونا إلى أن نستذكر قصيدة محمود درويش، بل وأن نستعيد فيها وقائع بحالها، وذكريات صرفة لا نستعيد معها انتفاضة الحجارة فحسب، بل يمكن لها، في وقتنا وفي هذا الحين، أن تكون ثانية شهادة للأطفال تحت الأنقاض، وصوتاً للحرب على غزّة.

تبدأ قصيدة محمود درويش ممّا يبدو ختاماً، بل يبدو خلاصة وعبرة؛ إذ لا بدّ من كلّ هذا العسف، وكلّ هذا التجريح، وكلّ تلك المعاناة، ليقف الشاعر في النهاية قبالة المحتلّ، بل يقف ليقذف في وجهه: «احملوا أسماءكم وانصرفوا/ واسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا». لن نفكّر هنا في من هو الأقوى، في من يملك القدرة على دعوة كهذه، لن نفكّر في نشيد حربي ودعوة قتالية، فالكلام يتجاوز ذلك كلّه. الكلام هو بعد هذه المقاربة، بل بعد المعركة. إنه حيث تكون الحقيقة حاضرة، حيث يكون التاريخ شاهداً. لا نصدّق محمود درويش وهو يقول: «فلنا في أرضنا ما نعمل»، أو وهو يقول: «فلنا في أرضنا ما نعمل/ ولنا الماضي هنا/ ولنا صوت الحياة الأول/ ولنا الحاضر، والحاضر والمستقبل». ليست هذه هي الأرض الخاضعة للاحتلال، وليست الماضي التوراتي. إنّها بعبارة درويش صوت الحياة الأوّل، صوت الحياة الذي ينبثق من وراء كلّ ذلك، من الماضي الحقيقي، ولكن أيضاً من الحاضر الحقيقي. ليس هذا بالطبع الاحتلال، إنه شيء أكثر من الزمن، وفوق الزمن، إنّه نوع من الزمن الأصلي، من الزمن الأوّل، الذي وحده يحمل وعداً بالمستقبل، الذي هو أيضاً المستقبل الأوّل، المستقبل الأصلي.

لا يعني ذلك أنّ محمود درويش يتكلّم من خارج الوقائع، الوقائع حاضرة ولا يزال يؤشّر لها: «منكم السيف ومنّا دمنا/ منكم الفولاذ والنار ومنّا لحمنا، منكم دبابة أخرى ومنّا حجر... فخذوا حصّتكم من دمنا وانصرفوا». لا تفعل كلّ هذه القوّة، كل ذلك الطغيان واقعاً أو حقيقة، إذ لا شيء منهما ينفي ذلك الأصل، لا شيء منهما قادر على أن يفرض أكذوبة أو خداعاً، لا شيء منهما يمكنه أن يكون أصيلاً. الحقيقة هي في الحجر لا في الدبابة، إنّها في اللحم لا في الفولاذ والنار، كلّ هذا مارّ وعابر لمارّة وعابرين، كلّ هذا لن يدوم، فنحن في الأوّل، نحن الحياة الأولى ومستقبلها وماضيها. لا أظنّ أنّ الثاوين تحت الأنقاض والخارجين من الأنفاق يملكون أكثر من هذه الشهادة، إنهم تحت الردم وتحت القصف يعيشون من شهادة كهذه، نحن الأصل، نحن الحقيقة، فاخرجوا وانصرفوا.

(شاعر وروائي من لبنان)

لا تستطيع القوّة والطغيان أن يفرضا أكذوبة أو خداعاً

أطفال في مبنىً متضرّر جرّاء القصف الإسرائيلي على رفح، 9 شباط/ فبراير 2024 (Getty)

يوميات

ثأري مع طيّاري سلاح الجوّ ويدي قصيرة

لا أنام

دمّرت الرأسمالية غريزة البقاء فينا، واعتدت على مُحبّي الشعر، فانقصت عددهم بشكل مفجع، لأنّها جعلت جميع البشر تحت سلطتها أقلّ ذكاءً

باسم النبريص

لا أنام: المرآة الغرّاوية التي نجت من المحرقة مختبئةً تحت الركام، ترجو ابنها أن يُخرجها فوراً. الابن يعد ويُقسم أنّه سيفعل، ولكنّ الموضوع «محتاج لأدوات وبعض الوقت، يمّا».

لا أنام: لساني يستعيد أجمل ذكرى له عندما كان ينادي: «يمّا». لا أجمل من هذا النداء فوق الأرض قاطبةً.

لا أنام: بعض الوقت ذاك سيحرقُ بقية وقتي، وما قُدّر لي أن أحياه، بعد هذه المحرقة، فوق تراب الكوكب المتهدّم.

لا أنام: قلبُ الإرهابي النازيّ من حجر. مع الاعتذار للحجر.

لا أنام: زمان كان الشعراء كادحي نور يحملون لوحات شمسية لتركيبها فوق سقوف بعض المنازل، واليوم لا دور لهم.

لا أنام: الرأسمالية دمّرت غريزة البقاء فينا، واعتدت على مُحبّي الشعر، فانقصت عددهم بشكل مفجع، لأنّها جعلت جميع البشر تحت سلطتها أقلّ ذكاءً.

لا أنام: زمان كان الشعر يتصدّى ويقاوم. كان العمل النبيل الذي لا توجد فيه بطالة، بل عمالة كاملة، واليوم، هو ذا مُلقى كجثّةٍ على الرصيف.

لا أنام: لقد قتلوا الشعراء والأطبّاء والممرّضين وعمّال الطوارئ والمقاومين وبائعي السحلب في شتاء رفح، وجامعي الحطب الأخضر لإنضاج الرز الرديء، وليل الطامحين للنجاة، والصافنين في وجوه أطفالهم النائمين، خائفين عليهم من الموت الكلّي أو بتر الأطراف.

لا أنام: ثأري مع طيّاري سلاح الجو، ويدي قصيرة.

■■■

قلبي عليهنّ نسوة ما بعد القصف، وهنّ يُقذفن إلى أغلفة الفضائيات، قبل تدبير مقبرة جماعية. قلبي على شعبي، وقلب الغرب والغرب من حجر.

هناك فرق بين الرغبة في العودة إلى الماضي أو المرور به وتحمّله، من أجل مواجهة المستقبل بأفضل طريقة ممكنة، وعمل استعادة النساء المنسيات الذي يقوم به أشخاص مثل إعلاميّي حروبنا الأبطال. من سوف يسأل عن الاهتمام الذي تثيره هذه الشخصيات الآن: إنّهنّ والدات مقاتلينا من طالبي الحريّة، وهم معهنّ في أساس بعض أسلّة الهوية، مثل صراع الضعيف مع الوحش، حتّى لا مناص من دم، كي نشرب كشعب مشرّد من ينابيع بلادنا المحذوفة.

لا غرو أنّهنّ مادة دسمة لدراسات ما قبل التحرّر من الاستعمار.

وكلّ التفسيرات التي تشير إلى عكس ذلك جعلت من التاريخ نُظاماً أكثر قتامة، وأكثر إغراءً للعمل عند نُخب المال، ولكنها أيضاً أكثر مرونة، وتستفيد الثقافة الشعبية منها، لأنّ القضايا العادلة هي مكان مناسب لسوق مُربحة للغاية.

ما كان عبارة عن سلسلة من البيانات والتفسيرات المرتبطة بمكان ولحظة، أصبح الآن خيالات تأتي إلينا على شكل محتوى.

لا والله: إنه الشِّعرُ لا الشُّعار.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

كان الشعر يتصدّى ويقاوم. كان العملَ النبيل الذي لا بطالة فيه

طفلة فلسطينية في حافلة مهجورة بدير البلح جنوبي غزّة، 8 شباط/ فبراير 2024 (Getty)

فعاليات

لبنان/ حرب (47 دقيقة) عنوان فيلم وثائقي للمخرجة اللبنانية **رانيا اسطفان** (الصورة)، يعرضه «متحف سرسق»، عند السابعة والنصف من مساء الخميس المُقبل. صُوّر الشريط خلال العدوان الإسرائيلي على لبنان في تمّوز/ يوليو 2006، وفيه رصدت اسطفان يوميات اللبنانيّين خلال الحرب وما بعدها.

ضمن سلسلة ندوات **سقط القناع عن القناع** التي تنظّمها «مكتبة تكوين» في الكويت العاصمة حول تاريخ القضية الفلسطينية، يُقدّم الباحث الحقوقي **علي العريان** (الصورة)، عند السابعة والنصف من مساء بعد غدٍ الثلاثاء، محاضرة بعنوان «محاكمة الإبادة: مرافعة ابناء ماندلا ضدّ الكيان الصهيوني»، يتناول فيها دعوى جنوب افريقيا ضدّ الاحتلال في «محكمة العدل الدولية».

تعقد مجلّة «المركز»، عند الرابعة والنصف من مساء الخميس المقبل، حوارّية افتراضية مع الكاتبة **آنا ليكاس ميلر** (الصورة)، تُديرها المترجمة والمُحرّرة الادبية **لينا منذر**. تتحدّث ميلر عن كتابها **حبّ عبر الحدود: جوازات السفر، الأوراق، والرومانسية في عالم منقسم** (2023)، وعن علاقة الحبّ بالمكان واللجوء.

عند السادسة من مساء الأربعاء المُقبل، تنظّم مؤسّسة «صوت»، في فضاء «جدل للثقافة والمعرفة» بعمّان، جلسة حول **الأرشفة في ظلّ الإبادة**، بمشاركة: **بيسان عودة** (الصورة)، و**ياسر عاشور**، و**بيان ابو طعيمة**، و**سراج الدين شديفات**. تتناول الندوة الإنتاجات الصوتية التي اعتمدت الأرشيف السمعي والمكتوب منذ بدء العدوان.